مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد: 22 العدد: 50 السّنة: الثّلاثيّ الثّاني 2020 ص: 325 - 350

تجلّيات معايير الخطاب والتخاطب البلاغي عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ـ رؤيّة لسانيّة تداوليّة ـ

أ. أمال أورابح[1]

تاريخ الإرسال: 09 06 2019 تاريخ القبول: 19 11 2019

ملخّص: نحاول من خلال هذه الدّراسة تسليط الضّوء على التّراث البلاغي العربي بنظرة لسانيّة وتداوليّة حديثة، من خلال محاولة الإحاطة بالخطاب والتّخاطب البلاغي عند الجاحظ في كتابه "**البيان والتّبيين**" ضمن أهم الشّروط والمعايير التي تحقّق للخطاب البلاغي بيانه وفصاحته.

الكلمات المفاتيح: تجلّيات- الخطاب - التّخاطب البلاغي- معايير- البيان والتّبيين

Résumé :

Dans cette article , nous essayons de faire la lumière sur un regard linguistique et délibératif moderne , deviner a travers de, adressant le discours et la communication au rhétorique chez el Jahid dans son livre Al- Bayan et Tabyin dans ses conditions et règles les plus importantes qui réalisent le discours des platitudes et son ouverture .

mots de passe : manifestation -discours- discussion- rhétorique- les normes-

Abstract : We try through this study, we attempts to shed highlighting the rhetorical heritage of the Arabs with a modern linguistic and trading perspective by truing to catch up with rhetorical rhetoric when Al-Jjahiz in

[1] جامعة الجزائر2 ، الجزائر، البريد الإلكتروني: amelourabah@gmail.com

his book the statement and clarification among the most important conditions and criteria that undermine the eloquence of the speech.

key Words : manifestations- speech- speech representation.

مقدّمة: يحمل الخطاب في الجاهليّة بعدا فنيا وبيانيا، يميّزه الحسّ الفنّي والذّوق والإحساس المرهف والتّعبير عن المشاعر النّبيلة بلمسة بيانيّة ولغة راقيّة تسحر العقول وتؤثّر في الوجدان.

وقد أضحى الخطاب والتّخاطب محل اهتمام الدّراسات اللسانيّة والتّداوليّة الحديثة، حيث أولوه العنايّة والاهتمام وأحاطوه بالدّراسة من كلّ جوانبه. كون هذا الأخير متواجدا في حقول معرفيّة مختلفة المشارب من لغويّة وأدبيّة واجتماعيّة وسياسيّة...الخ. فكلّ حقل خطابي يحتاج فيه المتكلّم - بالنّظر إلى طبيعة العلم وخصائصه- التّركيز على المتلقي. هذا الأخير الذي يشكل محورا هامّا من محاور الدّورة التّخاطبيّة، حيث بفضله يتمّ إنتاج الخطاب وتوجيهه أيضا. ومن ثمّة جاء الاهتمام بالخطاب عامّة والتّخاطب خاصّة ضمن الشّروط والقواعد التي تحفظ ضمان الدّورة التّخاطبيّة بكل آمان وسلام ووضوح تام لا يشوبه أي غموض، خصوصا وأنّ الخطاب يتأسس وينبني على الألفاظ والمعاني التي تحقّق غايات المتكلّمين ومقاصدهم التي يصبون إلى تحقيقها.

غير أنّ تحقّق تلك المقاصد وبلوغها عن طريق التّأثير في الجماهير ليس بالأمر الهين، بل لابدّ لها من شروط ومعايير ضابطة لتحقيق ذلك تتعلّق تارة بالمخاطِب كمنتج للخطاب، وتارة أخرى بالمخاطَب من حيث كونه متلقيه وأخرى بالخطاب كونه بنيّة تركيبيّة هادفة. وهذا كلّه ليس وليد الدّراسات اللسانيّة الحديثة ولا التّداوليّة التي باتت تهتم بالخطاب ضمن حدود وأطر الاستعمال متجاوزة به الإطار البنوي للغة الذي حدّده دي سوسور رغم انتشار البحث فيه وفي خصائصه والعمل على تفعليه.

بل، نجد له جذورا في تراثنا اللغوي العربي، حيث تنبه مجموعة من اللغويين والأدباء والنّقاد وحتى المفسرين إلى قيمة الخطاب والتّخاطب محاولين وضع الأسس والمعايير التي تضمن سلامته وبلوغ غايته

ووفقا لذلك، فإنّنا سنتناول في هذه الورقة البحثيّة معايير الخطاب البلاغي من منظور الجاحظ في كتابه الموسوم بـ(البيان والتّبيين)، منطلقين من الإشكاليّة الآتيّة: هل البلاغة العربيّة تقوم على معايير معيّنة للخطاب والتّخاطب تضمن للخطاب بلاغته وفصاحته ويصبح بيِّنا لدى متلقيه؟ وإن كان كذلك، فيم تتجلّى هذه المعايير عند الجاحظ من خلال كتابه الموسوم بـ(البيان والتّبيين)؟ وما حقيقة البيان عنده؟

- **مميّزات عصر الجاحظ:** تميّزت البلاغة العربيّة في جاهليتها بخاصيّة التّفنن في أساليب القول المختلفة فأبدع الشّعراء والأدباء في مختلف الأغراض الشّعريّة من خلال نقل الصّورة الواضحة لبيئة الجاهليّة في مختلف نواحيها عن طريق الذّوق المرهف والأداء الحسن والتّأثير القوي والانفعال الشّديد والعاطفة الصّادقة.

لكن البلاغة العربيّة قد عرفت نقلة نوعيّة، وهي انتقالها من إطار الفن إلى حدود المعايير العلميّة الضّابطة، فأصبحت علما قائما له أصوله وقواعده. ولعلّه من الصّعوبة بمكان ونحن نتحدث عن هذه النّقلة النّوعيّة وما آلتّ إليه البلاغة العربيّة فهم الجاحظ وفهم أرائه المختلفة وتفكيره البلاغي عامّة، إلاّ بالعودة إلى مميّزات عصره بغيّة استنباط أفكاره وتحليلها ضمن سياقات ورودها في ذلك العصر.

حيث إنّ ما ميّز عصر الجاحظ في القرن الثّالثّ هجري، هو أنّه فترة التّأسيس والتّقعيد لعلم البلاغة، من خلال مجموعة من الخصائص والأحكام والملاحظات البلاغيّة المتعلقة بالخطاب عامة والتّخاطب خاصّة في مختلف فنون الكلام منطلقها هو النّص القرآني الذي سحر العرب وأعجزهم عن الإتيان ولو بأيّة من

مثله، فانكب العلماء على دراسته والبحث عن سر إعجازه، فكان نتيجة هذا البحث ما يلي:

- وجود اهتمام باللفظ
- وجود اهتمام بالمعنى

والعرب القدامى كانوا سباقين إلى هذا الاهتمام من خلال حرصهم الشّديد على الوقوف على اختيار أجود اللفظ وأجود المعنى وانتقاء الألفاظ والمعاني والصّور، بغيّة التّأثير في المتلقين وإقناعهم [1].

وما يميّز هذا العصر كذلك هو ظهور المتكلّمين والفرق الكلاميّة التي أسهمت إلى حد كبير في تأسيس الدّرس البلاغي والعمل على تنميته وتطويره منهم المعتزلة الذين يعنون بمسائل البيان والبلاغة، فكثُرت الحوارات والمناظرات والحجج التي تُعنى ببيان نجاح المناظر والخطيب، والجاحظ أحد هؤلاء الذين تناولوا هذه المواضيع وطرحوها قصد بيانها وتبيينها للعامّة. [2]

إضافة إلى هذا، نجد انفتاحا على العلوم والثّقافات الأخرى كالفرس والرّوم واليونان كمطلب قصد المقارنة بين أساليب البلاغة العربيّة وغيرها من بلاغات الأمم الأخرى، ما أكسب البلاغة العربيّة طابع المنطق والحجاج والاستدلال والمناظرة تأثرا بالمنطق الأرسطي والفكر الفلسفي اليوناني، حيث اهتم أرسطو بالشّعر وفنونه مبرزا أهميته في التّعبير وما يحمله من قوّة تأثيريّة في الجماهير مميّزا من خلاله بين الشّاعر الجيِّد والنّاظم الجيِّد باتّخاذه اللّغة الشّعريّة تقييما عاما للأدب. [3] كما اهتم بالخطابة أيضا معتبرا إيّاها فنّا بلاغيا وبيانيا بامتياز، لما تمتاز به من أساليب متنوّعة في الحجاج السّاعي إلى فعلي الإقناع والتّأثير. [4]

وعلى إثر هذا الانفتاح، وبفعل التّأثير والتّأثر ارتبطت البلاغة العربيّة بالحجاج لأجل البيان وتوضيح آليات الكتابة الفنيّة الصّائبة والجماليّة ضمن إطار فنّ التّعامل مع النّاس السّاعي إلى الإقناع والتّأثير في الغير بصورة فنيّة جماليّة،" لأنّ الجمال كثيرا ما يتذوقه الحسّ الظّاهر والشّعور الباطن، دون أن

يستطيع الفكر تحديد كلّ العناصر التي امتلكت استحسانه وإعجابه.... إذ إنّ أفاق الجمال أوسع من أن تُحدّد أو تُحصر بأطُر ومقاييس، ولكن يمكن اكتشاف بعض عناصر الجمال وكلياته العامّة وطائفة من ملامحه" [5]

والجمال الأدبي والفنّي مرتبطان بالبيان والبلاغة والفصاحة كملامح دالة على الأداء الجيِّد للكلام، وجهود الجاحظ بهذا الخصوص واضحة المعالم في كتابه (**البيان والتّبيين**) الذي سعى من خلاله إلى تحديد خصائص البيّان العربي وصفات المحاجج سواء الخطيب أم الشّاعر أم الوصي أم غيره في الإقناع، إذ القصد من الكلام إنّما يكمن عامّة في **الإقناع والتّأثير**. [6]

ومن هنا تظهر قيمة الكتاب الذي ألّفه الجاحظ من خلال ما يحمله من قيّم علميّة وتعليميّة هادفة نحو التّفنن في الأساليب على سمت كلام العرب القدامى، وتعريفهم بطرائق التّبليغ والبيان والإقناع، لأنّ مدار البلاغة إنّما هي التّفنن والتّأثير في الغير ثمّ الإقناع.

- **قيمة الكتاب:** كتاب(**البيان والتّبيين**)، يعدّ في نظر الدّارسين مدرسة بيانيّة بامتياز لأنّه كتاب أراد به صاحبه بيان بعض الحقائق والمسائل المرتبطة بزمانه والعمل على تبيينها وإيضاح معالمها، فأفاد به من خلال ما أفاض الحديث عنه في ذاك الزّمان، واستفاد منه غيره من البلاغيين ممّن جاؤوا بعده، حيث وجدوا أرضيّة خصبة ومنطلقا للعديد من المسائل البلاغيّة التي ارتكزوا عليها في طرحها، فكان كتابا يتمّ تداوله والاستعانة به في كلّ عصر عرف تطوّرا وتقدّما في مجال البلاغة العربيّة ومباحثها.

وهو يعدّ إلى جانب هذا كلّه، أكثر الكتب تداولا حتى في عصرنا الحالي لأنّه عدّة كل باحث أراد به نفعا وعلما سواء أكان ذلك في مجال اللغة أم الأدب أم البلاغة أم النّقد. فهو من الكتب العظيمة النّفع في مختلف المجالات: أدبا ونقدا ولغة وبلاغة وحتى شواهد على صحّة البيان. وقد أشاد به القدماء فزادوه عظمة وقدرا، ودليل ذلك ما جاء على السّنة البلاغيين والعلماء عامّة من بعده،

نذكر مثلا" أبا هلال العسكري" في حديثه عن كتب البلاغة وقيمتها الأدبيّة في تأصيل علم الأدب وتوضيح معالمه وفنونه حين قال: " وكان أكبرها وأشهرها كتاب "**البيان والتّبيين**"، لأبي عثمان بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشّريفة، والفقر اللطيفة والخطب الرّائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة، إلاّ أنّ الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتثرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلاّ بالتّأمل الطّويل، والتّصفح الكثير" [7]

كما جعل ابن خلدون كذلك كتاب **البيان "والتّبيين"** مصدر علم الأدب وأصله حين أوضح أصول علم اللّسان العربي قائلا:" سمعنا من شيوخنا في مجالسّ التّعليم أنّ أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: **أدب الكاتب** لابن قتيبة وكتاب **الكامل** للمبرد، وكتاب "**البيان والتّبيين**" للجاحظ، وكتاب **النّوادر** لأبي على القالي. وما سوى هذه الأربعة فتبعٌ لها، وفروع عنها" [8].

وعليه، فإنّ المُطّلع على كتاب البيان والتّبيين ليجده ثروة هائلة وخزانا معرفيا. بل وكنزا من العلوم والمعارف والمصادر والحقائق العلميّة ذات الصّلة بالبلاغة والبيان- القواعد البلاغيّة - القول في المذهب الوسط- الخطابة - الشّعر - الأسجاع - نماذج من الوصايا والرّسائل - طائفة من كلام النّساك والقصاص وأخبارهم - عرض لبعض كلام النّوكى والحمقى ونوادرهم - وضروب أخرى من الاختيارات البلاغيّة. [9]

- **حقيقة البلاغة والبيان عند الجاحظ:** ساعدت نظرة الجاحظ واطّلاعه العام على العلوم والثّقافات الأخرى من تحديد أصول البلاغة العربيّة وماهيتها حيث تمثّلها في أمور عديدة مرتبطة ببنيّة الخطاب الدّاخليّة والخارجيّة وأطرافه وآلياته اللغويّة، فجعل مفهومها يتميّز بنوع من الشّموليّة في التّعريف، كون

البلاغة يمكن التّماسها في نقاط عدّة ترتبط بالخطاب داخليا وخارجيا، كما ترتبط به من خلال طرفيه الأساسيين وهما: المخاطِب كمنتج له والمخاطَب كمتلّقٍ ومحلّل له. يقول موضّحا شموليّة البلاغة من حيث ماهيّتها وتجليّاتها أيضا:" البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، منها ما يكون في السّكوت ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل. وعامّة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى" [10].

فتعريفه هذا يتّسم بالشّمول المعرفي لماهيّة هذا العلم العظيم، وهو لم يكتف بإيراد نظرته وخلاصته المتفحصّة لماهيّة البلاغة فقط، بل قدّم أقوال ورأي الأمم الأخرى في تعريفهم لها من روم وفرس ليوضح من خلال هذه الأقوال ماهيّة بلاغة الكلام عامّة، ويضع حدود البلاغة ومكامنها بدقّة في الكلام عامّة رغم اختلاف اللغات فيها. فقد أورد في تعريفاته عنها ما يلي: [11]

- قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل والوصل؛
- وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام؛
- وقيل للرّومي ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة؛
- وقيل للهندي: ما البلاغة: قال: وضوح الدّلالة، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.

إنّ هذه التّعاريف توضح مكامن البلاغة في الكلام وآليات تحقيقها التي ترتبط بالخطاب كبنيّة تركيبيّة تهدف إلى البيان عن المعاني بعدّة طرائق يستعملها المتكلمون قصد بيان معانيهم المختلجة في الأذهان أو الصّدور.

وعليه، فقد جعل البيان مرتبطا بطرائق إيصال المعاني، حيث أوضح من خلال كتابه أنّ المعاني التي تختلج في صدور النّاس خفيّة ومستورة، لا يتمّ الكشف

عنها إلاّ بالألفاظ التي تعمل على بيانها وتوضيحها، غير أنّ البيان عنده جامع لكلّ شيء دون استثناء لأنّ مفهوم البيان يعتمد على المطلق في إبانة المعاني، يقول موضّحا:" البيان اسم جامع كشف لك قناع المعنى وهتك لك الحجاب دون الضّمير، حتى يُفضي السّامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذاك البيان، ومن أيّ جنس كان الدّليل، لأنّ مدار الأمر والغايّة التي يجري إليها القائل والسّامع، إنّما هي الفهم و الإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"" [12]

وقوله هذا يوحي بأنّ البيان ذو مفهوم مطلق، لأنّه متعلق بطرائق إيصاله عن طريق ما يدلّ عليه، موضّحا في السّياق ذاته أنّ البيان إنما يكون بالدّلالة عليه والدّلالة تكون باللفظ وبغير اللفظ، وجميع أصناف الدّلالات - عنده - تنحصر في خمسة أشياء هي: اللفظ والإشارة والعقد والخط والحال التي هي النّصبة. [13]

مضيفا قوله بأنّ اللفظ والإشارة شريكان، حيث ربط الدّلالة بالإشارة وهذه الأخيرة تكون باللفظ وبغير اللفظ، والبيان عنده واقع في اللفظ والمعنى سواء الصّريح أم غير الصّريح، إذ " على قدر وضوح الدّلالة وصواب الإشارة ..... يكون إظهار المعنى. وكلّما كانت الدّلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور كان أنفع وأنجع" [14]

وعليه، فإنّ علاقة البلاغة بالبيان تتجلى من خلال تلك العلاقة التّلازميّة بينهما، إذ لا وجود للبلاغة إلاّ بوجود البيان فيها، والبيان هو الأخر لا يكون إلاّ لأجل التّبليغ عن المقاصد. لذا، فإنّ هذه الأخيرة مقترنة بالفصاحة، كون الفصاحة عنده" آلة البيان" [15]، بها يتمّ تحقيق بلاغة وبيان الخطاب عامّة والمخاطِب خاصّة.

إذ البلاغة "هي بلوغ المتكلم في تأديّة المعاني حدا له اختصاص بتوفيّة خواص التّراكيب حقّها" [16] وتأليف التّراكيب يكون بالألفاظ وبالمعاني، لذلك جُعلت

الفصاحة متعلّقة باللفظ وبالمعنى.[17] حيث إن الفصاحة عند البلاغيين شرط من شروط بلاغة الكلام، من منطلق أنّ: **كل بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغ**. والفصاحة في مفهومها إنّما هي الوضوح والبيان[18] وهو الأمر الذي جعل الجاحظ يقف في كتابه على طبيعة البلاغة والفصاحة عن طريق البيان من خلال جملة من المعايير التي تضمن للخطاب بلاغته وفصاحته في التّعبير عن المقاصد. إذ البيان في عموم معناه" إظهار المتكلّم المراد للسّامع"[19].

والمعاني المراد إظهارها تكون متضمّنة في جميع فنون الأدب من خطابة وشعر ورسائل وقصص...، ما جعل الجاحظ يحرص على تبيان المعايير التي تؤدّي بهذه المعاني إلى وصولها إلى المتلقي.

- **معايير الخطاب البلاغي في نظر الجاحظ:** يوحي كتاب "**البيان والتّبيين**" بوجود عمق الاهتمام ببلاغة الخطاب الأدبي بمختلف أشكاله وفنونه وآليات الإقناع والتّأثير لأنّ البلاغة تنحصر في عمومها في إقناع الجماهير من جهة والتّأثير فيهم من جهة ثانيّة.

وفي غضون هذا الاهتمام حدّد الجاحظ معايير للخطاب الأدبي البلاغي من خلال اهتمامه بفنون الأدب من الخطابة والشّعر والرّسائل والوصايا وغيرها، إذ ساعدته في ذلك المقارنة بين البلاغة العربيّة وبلاغة الأمم الأخرى. غير أنّ ملامح هذه المعايير نجدها مبثوثة في ثنايا كتابه، لأنّ منهجه في الطّرح كان منهجا عن طريق الاسترسال في بث القضايا والمسائل المدروسة، وتلك سمة القدماء في طرح مختلف القضايا وشرحها وتحليلها.

وباستقراء كتابه يمكن الخلوص إلى عدّة معايير مرتبطة بفنون الأدب المختلفة، وهي تشمل مستويات اللغة المختلفة من صوتيّة - لفظيّة - نحويّة تركيبيّة- دلاليّة سياقيّة وتداوليّة، ذلك أنّ الخطاب يعتمد بقوّة على اللّغة كآليّة للتّعبير عن مختلف الأغراض والمقاصد. فقد أوضحت الدّراسات الحديثة مدى علاقة اللغة بالخطاب وكذا الخطاب باللّغة، من حيث هما وجهان لعملة

واحدة كونهما متلازمان [20].إذ اللغة وعاء للخطاب، والخطاب هو الأخر لا يمكن تحقّقه إلاّ بفعل اللغة. واللغة هي محور اهتمام الدّراسات اللسانيّة التي أوضحت بأنّها ذات خاصّيّة تواصليّة، والتّواصل هو الآخر مبدأ مهمّ من مبادئ الخطاب الذي يقوم على أسس وقواعد وشروط تواصليّة وتداوليّة كـ: **القصديّة - الوضوح - الكميّة - الشّموليّة - المصداقيّة** [21]، وهذه الشّروط تجعل الطّرف الثّاني من الخطاب على اتصال وتواصل مستمر بمنتجه، إذ الغايّة من الخطاب هي تحقيق فعل التّواصل فيه.

وقد سعى اللسانيون إلى توضيح علاقة الخطاب بالتّواصل اللغوي، ومن هؤلاء الذين بيّنوا علاقة اللغة بالخطاب والتّخاطب بشكل واضح وجلي هو "رومان جاكبسون roman Jacobson " من خلال تحديده لعناصر الدّورة التّخاطبيّة التي تقوم على ستّة عناصر أساسيّة هي: المرسل والمرسل إليه والرّسالة والسّنن والسّياق والقناة، معتبرا هذه العناصر السّتة فواعل للخطاب بها يتمّ تحقيق التّواصل والتّبليغ، موضّحا في السّياق ذاته وظائف اللغة الخطابيّة التي استقاها من هذه العناصر والمتمثّلة في: الوظيفة التّعبيريّة- الوظيفة الافهاميّة- الوظيفة الشّعريّة - الوظيفة الانتباهيّة- الوظيفة المرجعيّة - وظيفة ما وراء اللغة. [22]

فهذه الوظائف، هي ما يحقّق للخطاب فعله التّواصلي عن طريق التّخاطب السّليم. غير أنّ التّخاطب عامّة نوعان: تخاطب يفضي إلى تواصل وتخاطب لا يفضي إلى تواصل. [23] والتّخاطب السّليم هو الذي يفضي إلى تواصل، حين يعتمد فيه صاحب الخطاب على البيان والوضوح باعتماد شروط وقواعد التّخاطب، لذلك تمّ تحديد مفهوم البلاغة على أنّها إيصال المعنى إلى قلب المستمع.

وعليه، يمكن حصر معايير الخطاب البلاغي الواردة في كتاب (البيان والتّبيين) للجاحظ في معايير خاصّة بالخطاب كبنيّة تركيبيّة مؤلّفة ومعايير

خاصّة بالخطاب من حيث لفظه ومعناه ومن حيث دلالتّه التّركيبيّة ومن حيث أسسه التّداوليّة أيضا.

وفيما يلي سنشير إلى كل معيار على حدّة، لنوضح أهميّة كلّ معيار في تحقيق البيان وما ينتج عن عدم تحقيقه، مع الإشارة إلى أنّ وحدة الخطاب ولُحمته إنّما هي في اجتماع هذه المعايير كاملة، وهو ما قام الجاحظ بإيراده. غير أنّنا سنفصل بعضها عن بعض بغيّة بيان حقيقة البيان ومكمنه عند الجاحظ.

أ معايير خاصّة بالخطاب كبنيّة تركيبيّة: وهي الأخرى تنحصر فيما يلي:

- **معايير صوتيّة:** فطبقا لتعريف ابن جني للغة وحدّه لها بأنّها "أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم" [24]، فقد أدرك الجاحظ قبله قيمة الأصوات وأهمّيتها في بيان المعاني، فوقف عندها وقفة دقيقة متفحّصة عاقدا لها بابا بأكمله ليوضح أهميّة الصّوت في الإبانة عن المعاني ، حيث جعل الصّوت آلة اللفظ والنّاطق به والموضح لمعناه، يقول في ذلك :" الصّوت آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التّقطيع، وبه يوجد التّأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا ولا منثورا إلاّ بظهور الصّوت، ولا تكون الحروف كلاما إلاّ بالتّقطيع والتّأليف" [25].

وقوله هذا، يُظهر مدى عبقريّة الجاحظ في التّنبيه إلى مسائل الصّوت كمستوى أوّل من مستويات اللّسان، حيث به يتمّ تأليف الكلام وبه يتمّ الحسن والجودة في الكلام، إذ بدون أصوات لا معنى للكلام، فكان بفكره هذا سباقا للفكر اللساني الغربي، إذ أظهرت جهود أندري مارتيني في مجال اللغة واللسانيات أنّ اللغة تقع ضمن مستويين من حيث تأليف الكلام هما: المورفيم والمونيم. [26]

ولأهميّة الأصوات في بيان المعاني وتوضيحها ظهر ما يسمّى بـ" **علم الأصوات**" الذي يُعنى بدراستها فيزيولوجيا وفيزيائيا ووظيفيا، ضمن علوم الأصوات الآتيّة: علم الأصوات العام ويضم علم الأصوات الفيزيائي وعلم الأصوات الفيزيولوجي وعلم الأصوات الوظيفي. [27]

وإن كان العرب القدامى سباقين إلى هذا الطّرح من خلال جهود الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه العين، الذي قام بترتيب مفرداته حسب مخارج الأصوات موضّحا أهميّة المخارج في إحداث الصّوت وتوضيحه والتّأثير في المتلقي، ثمّ تلاه مجموعة من اللغويين العرب في الاهتمام بالدّراسات الصّوتيّة كسيبويه وابن جني وابن فارس من خلال ما أضافوه من جهود علميّة وإضافات خاصّة بالصّوت اللغوي وما ينجر عنه من معانٍ. [28]

ويظهر أنّ الجاحظ قد استفاد أيّما استفادة من الدّراسات الحاصلة قبله بخصوص الأصوات وقيمتها في البيان عن المعاني لأنّ الصّوت فرع للمعنى ما جعله يعتبر الصّوت اللغوي المعيار الأوّل في البيان عن المقاصد. وهو الأمر الذي أدّى به إلى التّعرض إلى أهميّة اللغة من حيث مخارجها وحروفها، وأهم المشاكل التي تعتريها، فجاء الحديث في كتابه عن العنايّة بأمراض الكلام التي تعتري الخطيب أو الشّاعر أو القاص ومدى تأثير ذلك على بيان المعاني للمتلقي، معتبرا هذه الأخيرة عيوبا كلاميّة نطقيّة. وعيوب النّطق عنده تعدّ عوائق وحواجز لفهم مقاصد الخطاب وتلقيه، فهي تنعكس سلبا على الخطاب جهة تلقيه وفهمه بوضوح.

حيث لمّا أدرك الجاحظ قيمة الصّوت في بيان المعنى المراد، فقد استفتح كتابه بالحديث عن عيوب البيان في النّطق بدل الحديث عن مفهوم البيان عامّة ليوضح أنّ البيان إنّما ينطلق من الصّوت أوّلا ، معلّلا سبب تأخيره الحديث عن البيان بقوله:" وكان في الحقّ أن يكون هذا الباب في أوّل هذا الكتاب، ولكنّا أخرناه لبعض التّدبير" [29] وقصده من التّدبير هو الوقوف عند

أبسط أمر يكون به البيان وهو الصّوت لأنّه في نظره وحدة دلاليّة والوحدة الدّلاليّة تبدأ من الوحدة الصّغرى للمعنى وإلى ذلك ذهب علماء الدّلالة، حيث قسّم " نيدا" الوحدة الدّلاليّة للكلام إلى أربعة أقسام هي: [30]

- الكلمة المفردة؛
- أكبر من كلمة(تركيب)؛
- أصغر من كلمة (مورفيم متّصل)؛
- أصغر من مورفيم (صوت مفرد).

لذا، فإنّ حسن تأديّة الأصوات حقّها في النّطق السّليم يؤدي إلى حسن البيان والفهم والإفصاح، والعكس من ذلك تماما يؤدّي سوء النّطق بالأصوات إلى الإخلال بالمعنى وعدم وضوحه، ولما أدرك الجاحظ هذا الأمر في زمن متقدّم اهتم بالعيوب النّطقيّة لما لها من تأثير على بيان الدّلالات كونها عائقا كبيرا في الفهم والإفهام، الذي تقوم عليهما البلاغة العربيّة، وهذه العيوب النّطقيّة هي: اللثغة واللكنة.

فاللثغة مرض من أمراض الكلام عند المهتمين بأمراض الكلام وعيوبه وهي تعني العدول بحرف إلى حرف أخر، حيث إنّ الشّخص الالثّغ هو الذي لا يتمّ رفع لسانه في كلامه، فينتج عن ذلك إمّا التّشنج الذي يُقصد به الإتيان بألفاظ غير تامّة، وإمّا الاسترخاء، الذي يعني الإتيان بألفاظ زائدة خارجة عن الجاري المجرى الطّبيعي على غير انتظام. [31]

والأصوات في العموم على صلة بالفصاحة في عرف البلاغيين، فألّف في (**ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة وما يحضرني منها**)، الحروف التي تدخلها اللثغة وهي أربعة: القاف - اللاّم- السّين- الرّاء. [32] وهي عنده لثغ تتأدّى باللّسان ويصوّرها الخط لتترجم ما فيه بيان وما ليس فيه لذلك جاءت الإشارة إلى أهميّة الأصوات في تبليغ المقاصد في العديد من صفحات الكتاب، حين كان يعرض في كلّ مرّة تجلّيات البلاغة.

- **معايير لفظيّة ومعايير معنويّة:** شكّلت ثنائيّة اللفظ والمعنى محورا هامّا من محاور الدّرس البلاغي، فقد كانا ثمرة ونتاج البحث عن سر إعجاز القرآن الكريم من حيث بلاغته التي فاقت بلاغة البشر، بين قائل إنّه في لفظه وقائل إنّه في معناه، وأخر في نظمه، والجاحظ كونه معتزليا ينتمي إلى مدرسة اللفظ فهو من أنصاره. لذلك نجده مهتمّا باللفظ كثيرا لنقل المعنى وبيانه على أكمل وجه، إذ المعاني عنده لا تتّضح إلاّ بالألفاظ، لأنّ الألفاظ دوال على المعاني كونها علامات لسانيّة، تقتضي توفرها على ثلاثة شروط هي: [33]

- دلالتّها على المعنى؛
- استعمالها في مجتمع لساني يفهمها؛
- انتماؤها إلى نظام من العلامات؛

لذلك يصرّح الجاحظ بأهميّة اللفظ وقيمته في إبلاغ المقاصد وتبيينها على أكمل وجه، ويظهر ذلك حين اعتبر البلاغة" تخير اللفظ في حسن الإفهام" [34]. غير أنّ اهتمامه باللفظ لم يكن بمعزل عن المعنى، بل لابدّ أن يكون اللفظ المختار متناسبا مع المعنى المراد له أن يكون، ففي سؤاله للعتابي عن ماهيّة البلاغة ما يدلّ على تلك العلاقة بينهما، حيث أجابه قائلا: "كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة فهو بليغ" [35]

فعلاقة اللفظ بالمعنى هي علاقة لزوم واستلزام لأنّهما وجهان لعملة واحدة حيث لابدّ لكلّ لفظ من معنى، كما لابدّ لكلّ معنى من لفظ يحققه. وقد أدرك شعراء الجاهليّة ذلك فكانوا حريصين كل الحرص على التّمييز بين أقدار الألفاظ والمعاني لتحقيق جودة الإفهام وبلاغة التّعبير من خلال اعتماد الذّوق في اختيار الألفاظ والمعاني والصّور. [36]

لكن الجاحظ من خلال هذه الثّنائيّة العلائقيّة يدرك تمام الإدراك أنّ ثمة فروقا بين المعاني والألفاظ، حيث يعتبر المعاني مختلجة في صدور النّاس وأذهانهم ويبقى أمر التّعبير عن المعنى هو اللفظ، يقول موضحا:" اعلم -

حفظك الله- أنّ حكم المعاني خلافُ حكم الألفاظ، لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غايّة وممتدّة إلى غير نهايّة، وأسماء المعاني مقصورة معدودة، ومحصّلة محدودة" [37].

ويقول في كتابه **الحيوان** في علاقة اللفظ بالمعنى:" المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، [والمدني]، وإنّما الشّأن في اختيار الوزن وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، [وكثرة الماء]، وفي صحّة الطّبع وجودة السّبك، فإنّما الشّعر صناعة، وضرب من النّسيج، وجنس من التّصوير" [38]

وتخير اللفظ يقتضي هو الأخر شروطا ومعايير حتى يُبلغ المعنى ويحقّق الفهم والإفهام، وهذه الشّروط هي: [39]

- عدم تنافر الأصوات؛
- عدم مخالفة الميزان الصّرفي؛
- عدم الغرابة.

وهذه الشّروط مجتمعة إذا ما توفّرت في اللفظ الواحد يمكن تحقّق فصاحته ومن ثمّة تحقّق فصاحة التّركيب وإيصال المعاني ،إذ **البلاغة** "هي كلّ من أفهمك حاجته" [40]، وفهم الحاجة يقتضي وجود معنًى مقصود عمدا لذلك اشترط في اللفظ شروطا معيّنة لاستحسانه حين قال :" كما لا ينبغي أن لا يكون اللفظ عاميّا، وساقطا سوقيّا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيّا" [41].

فالغايّة من اللفظ عنده هي إيصال المعاني حتى يتمّ فهمها وتلقيها بكل أمان لذلك طرح فكرة التّوافق بين اللفظ والمعنى والمعنى واللفظ قائلا:"فلا يكون لفظه إلى السّمع أسبق من المعنى إلى القلب" [42]، فقد جعل الجاحظ الإشارة إلى المعنى هو البلاغة ذاتها كون الفهم = البلاغة والبلاغة = البيان، يظهر ذلك واضحا في قوله:" لا معنى لكلام لا يدلّ على قصد المتكلّم، ولا يشير إلى مغزاه، أو

إلى العمود الذي يقصد إليه، أو إلى الغرض الذي ينزع إليه، لأنّ في ذلك إخلالا بالبلاغة [43].

ونراه في كلّ مرّة يؤكّد على أهميّة انتقاء الألفاظ وضرورة توفّرها على شروط القبول والاستحسان لتحقيق البيان البلاغي، إذ هاهو يقول في موضع أخر على لسان بشر بن المعتمر موضّحا علاقة اللفظ بالمعنى:" ... واجلب لكلّ عين وغرّة من لفظ شريف ومعنى بديع. واعلم أنّ ذلك أجدى عليك ممّا يعطيك يومك الأطول، بالكدّ والمطاولة، والمجاهدة وبالتّكلّف والمعاودة. ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا، وخفيفا على اللسان سهلا،..... ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا شريفا، فإنّ حقّ المعنى الشّريف اللفظ الشّريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يُفسدهما ويهجنهما وعما تعود من أجله أسوء حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما....." [44]

فهذه الأقوال تبيّن بوضوح مدى اتخّاذ كل من اللفظ والمعنى معيارا للفصاحة والبلاغة ومن ثمّة بيان وتبيين المقاصد، ممّا أوجب اختيار أحسن اللفظ للوصول بالمعنى إلى المتلقي كاملا حتى يفهمه. ومن ثمّة يوضح الجاحظ صفات المعنى المبيّن بالقول:" ومن حقِّ المعنى، أن يكون الاسم له طبقا، وتلك الحالُ له وفقا ويكون الاسم له فاضلا [ولا مفضولا]، ولا مقصِّرا ولا مشتركا، ولا مضمنا، ويكون مع ذلك ذاكرا لما عقد عليه أوّل كلامه، ويكون تصفّحه لمصادره، في وزن تصفّحه لموارده، ويكون لفظه مونقا، ولهول تلك المقامات معاودا" [45].

- **معايير تركيبيّة دلاليّة:** مرتبطة بتركيب الكلام من حيث ترتيب عناصرها أو تقديمها وتأخيرها أو حذفها وذكرها واعتماد الإعراب فيها والسّير على قوانين النّحو الموضوعة أصلا، إذ البلاغة تكمن في حسن التّأليف الخاضع لقوانين النّحويين وأحكام النّحو عامّة، لذلك نجد البلاغيين يحرصون على جودة السّبك وحسن التّأليف في الكلام لتتبين المقاصد للمتلقين، " لأنّ الأصل في الكلام القصد" [46]، والقصد ينطلق من الصّياغة التّركيبيّة السّليمة، وهو ما

عمل الجاحظ على توضيحه من خلال قوله:" يقولون أصاب الهدف إذا أصاب الحقّ في الجملة" [47]. فإصابة الحقّ في الجملة يكون من خلال تتبّع قوانين النّحو، وقوانين النّحو هي البلاغة ذاتها عند الجاحظ، يقول موضّحا:" جماع البلاغة التّماس حسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلّة الخرق بما التّبس من المعاني أو غمُض وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذر" [48]، مضيفا أنّ حسن البيان في التّراكيب اللغويّة إنّما يعود إلى تواجد الألفاظ في مواقعها الصّحيحة من السّياق وإعطائها حقّها من الأماكن المقسومة لها. [49]وهي دعوة صريحة منه إلى ضرورة احترام قوانين النّحو وقواعده لأجل ضمان تحقيق بيان المعاني والمقاصد. فالدّراسات اللسانيّة والتّداوليّة الحديثة تؤكد أن ترتيب الكلام والسّير على قوانين النّحو الموضوعة قاعدة تخاطبيّة يضمن وصول المعنى إلى متلقيه، ويحترز من الالتّباس في المعنى. [50]

ب- **معايير اجتماعيّة تداوليّة:** هذه الأخيرة تتضمن العلاقات القائمة بين المتخاطبين أنفسهم من خلال المسافات الفاصلة بينهم كالمستوى الاجتماعي والثّقافي والسّن، فقد أوضح المهتمون بمجال تداوليّة اللغة بأنّ تحقيق التّواصل اللغوي وتحقيق الإقناع والتّأثير والفهم والإفهام والقصد مرهون بشروط تداول الخطاب، كون اللغة ابنة المجتمع منشئاً وتداولا أيضا. لذلك يربط الجاحظ البيان البلاغي بعناصر المجتمع ومستوياتهم الفكريّة وطبقاتهم الاجتماعيّة، لأنّ لكل واحدة خصوصيّة في البيان وآلياته المعتمدة وفق حالاتهم. يقولا مستوضحا أهميّة الأمر:" ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما، ولكلٍّ حالةٍ من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات" [51]. فقوله هذا دليل صريح على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار المقام أثناء التّخاطب لما له من تأثير على فهم المقاصد واستيعابها، والعمل على أخذ الحيطة والحذر في كلّ قول

بالنّظر إلى مقامات المخاطَبين. [52] فبيان المقاصد ووصول المعاني مرهون بعنصر التّكافؤ الاجتماعي، لذلك يحرص الجاحظ ويلحّ على مقامات التّواصل لما لها من دور كبير في نجاح الخطاب وتحقيق التّخاطب مضيفا قوله ليؤكّد به فكرته:" فإن كان الخطيب متكلّما تجنب ألفاظ المتكلّمين كما أنّه إن عبّر عن شيء من صناعة الكلام واصفا أو مجيبا أو سائلا، كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلّمين، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحن وبها أشغف، ... " [53]. ويؤكّد مرة أخرى أن مدار البلاغة هو قيامها على الفهم والإفهام اللذين يأخذان بعين الاعتبار الفروق الاجتماعيّة كعامل قوي على تخير الألفاظ لضمان إيصال المعاني وتحقيقها إذ " مدار الأمر على إفهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم أقدار منازلهم، وأن تواتيه آلاته، وتتصرّف معه أداته، ويكون في النّهمة لنفسه معتدلا، وفي حسن الظّن بها مقتصدا" [54].

فالاهتمام بالمقامات شرط من شروط التّداوليّة، وقد تنبه الجاحظ إلى أهميّة المقام قائلا" أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح قليل اللّحظ، متخيّر اللفظ، لا يكلم سيد الأمّة بكلام الأمّة ولا الملوك بكلام السّوقة، ويكون في فحواه فضل التّصرف في كلّ طبقة ولا يدقّق المعاني كلّ التّدقيق، ولا ينقح الألفاظ كلّ التّنقيح، ولا يصفيها كلّ التّصفيّة، ولا يهذبها غايّة التّهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما أو فيلسوفا عليما" [55]

ج - **معايير متعلقة بالآليات الموظفة في الخطاب وأغراضه:** إنّ وجود اللفظ والمعنى ووجود البيان عن طريق مبدأي الفهم والإفهام غير كافٍ بالنّسبة للجاحظ، بل لابد من تكميل البيان عن طريق اعتماد آليات البيان كوسائل لتحقيق الأغراض المرجو تحقيقها من قبل المخاطِبين وذلك باعتماد ما يلي:

✓ **الحجج:** ترتبط البلاغة عند الجاحظ بالحجاج واعتماد الحجج التي تُسهم في بيان المقاصد وتعمل على التّأثير والإقناع في المتلقي، إذ البلاغة العربيّة

ذو طبيعة حجاجيّة في طرح القضايا أو الأفكار أو حتى القواعد كون البلاغة تعمل على إيصال المعاني وتبقي على جسر التّواصل بين الأطراف المتخاطبة. وعليه، تؤكّد الدّراسات اللسانية الحديثة" أن لا تواصل بلا حجاج كما أنّه لا حجاج بلا تواصل" [56]، وقد تنبه الجاحظ إلى أهميّة التّواصل الخطابي الذي يعتمد على البيان الحجاجي في استمالة الغير وإقناعهم والتّأثير فيهم حين أكّد أنّ من وجوه البلاغة الاحتجاج [57]، قائلا: "جماع البلاغة: البصر بالحجة والمعرفة بمواضع السّاعة" [58]. ومواضع السّاعة عنده مقترنة بالمعاني المراد تبليغها. لذا، انحصرت البلاغة عنده في" إصابة المعنى والقصد بالحجة". [59] فالبصر بالحجّة لا يكون إلاّ لأجل غايّة بيانيّة تواصليّة، لأنّ القصد بالحجة يزيد الخطاب قوّة وتأثيرا أكبر، وهو في نظره ما يحتاج إليه الخطيب والشّاعر والقاص ...

وعليه، فإنّ الحجاج تقنيّة خطابيّة تستهدف بيان المقاصد، الأمر الذي جعل الدّارسين يعدونه بمفهومه العام بأنّه "دراسة تقنيّة الخطاب، المؤدّية إلى تسليم العقول بما يطرح عليها من مسائل" [60]

فالحجج شرط أساسي من شروط تحقّق الخطاب ونجاحه، لأنّ متانة الحجة تعمل على إقناع الآخرين واستمالتّهم من جهة وتحقيق الغرض والمنفعة من جهة أخرى وهي الفهم والإفهام. ولكي يوضح الجاحظ قيمة الحجاج البلاغي وما له من تأثير واضح على تبليغ المعاني ووصول المقاصد وقف في العديد من صفحات كتابه على نماذج عينيّة كحجج وبراهين على صحة البيان وجودة السّبك نذكر على سبيل المثال(**باب في حسن البيان**) [61]، كدليل وبرهان قاطع على صحة البيان.

ويؤكّد الدّكتور "جميل حمداوي" أنّ للخطاب صفة حجاجيّة تعد من بنيّة اللغة ذاتها وجزء مهم من هذه البنيّة، كونها تسمح بفهم منطق اللغة وقواعدها أيضا [62]، ومن ثمّة تصبح" الفعاليّة الحجاجيّة صفة لكل خطاب طبيعي" [63]

وقد أدرك الجاحظ هذا منذ زمن بعيد ما جعله يوضح مكامن البيان وتجلياته ومميّزاته في الشّعر والخطابة والقصّة .. وغيرها. حتى يوضّح أنّ مكمن البلاغة وسرّها في بيانها، وبيانها في قوّة ما يعتمده الخطيب أو الشّاعر من حجج كوسائل على البيان ووضوح الأفكار أو المشاعر. وتحقيقا لهذه الغايّة قد يقع الحجاج في مستويات عدّة من التّركيب هي: الكلمة والتّركيب والصّورة. [64] ما جعل الجاحظ يقف عند صفات المحاجج في الإقناع والتّأثير، نذكر على سبيل المثال ما ذكره في صفات الخطيب، قوله: " أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة. وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ .... وقد نظر في صناعة المنطق من جهة الصّناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتّصفح، ولا على وجه الاستطراف والتّطرف" [65].

✓ **الإيجاز**: يُعرف الإيجاز على أنّه "أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة " [66]، فالإيجاز يحقق القول البليغ ويبين عن المقاصد، وقد تنبه العرب القدامى إلى أهمّيته في إيصال المعاني فجعلوه خاصيّة من خصائص خطاباتهم في التّبليغ عنها، لذلك تكمن البلاغة عند الجاحظ من خلال وجوهها المختلفة في الإيجاز. يقول موضّحا من خلال قول معاويّة بن أبي سفيان لصُحار بن عياش العبدي:" ما تعدون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز، قال له معاويّة: وما الإيجاز؟ قال صُحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ" [67]، إذ من قواعد التّخاطب الحرص على الكلام بإيجاز حتى تكون الفائدة للمخاطَب على قدر الحاجة. [68] فوقف الجاحظ على نماذج مختلفة من المعاني الظّاهرة باللفظ الموجز من ملتقطات كلام النّاس ذاكرا ما قالوا من الحديث الحسن الموجز. [69]

✓ **التّصوير الفنّي**: يتحقّق للمعاني بيانها عن طريق التّصوير الفني من استعارة وكنايّة وتشبيه، حيث يؤكّد الجاحظ أنّ الصّور البيانيّة لها من البيان ما لا يكون في الحقيقة، ويظهر ذلك من خلال قوله:" ومن مواضع البصر بالحجّة والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكنايّة عنها، إذا

كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدّرك وأحقّ بالظّفر" [70].

وقد ربط الجاحظ التّصوير أكثر بالشّعر في حديثه عن طرائق نقل المعنى بالألفاظ قائلا:"..... فإنّما الشّعر صناعة، وضرب من النّسيج وجنس من التّصوير" [71]، ونجد له بعض النّماذج من الصّور البيانيّة التي تؤكّد مكامن البيان ووجوه الدّلالة في نقل المعاني وتصويرها، منه قوله:" سل الأرض فقل: من شقّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارا، أجابتك اعتبارا" [72] موضّحا من خلال هذه الصّورة البيانيّة أنّ حسن البيان من حسن إصابة الدّلالة، والدّلالة تكون في الظّاهر النّاطق وفي غير النّاطق لأنّها نصبة لذلك يؤكّد أنّه" متى دلّ الشّيء على معنى فقد أخبر به وإن كان صامتا" [73].

ويلخص الجاحظ هذه المعايير مجتمعة ناصحا من خلال قوله:" فكن في ثلاثة منازل: فإنّ أولى هذه الثّلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إمّا عند الخاصّة إن كنت للخاصّة قصدت، وإمّا عند العامّة إن كنت للعامّة أردت، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامّة، وإنّما مدار الشّرف والصّواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال وما يجب لكلّ مقام من المقال" [74]

خلاصة القول: إنّ معايير الخطاب والتّخاطب البلاغي عند الجاحظ قوامها البيان في المقاصد لفظا ومعنى، وحصول البيان عنده يبدأ من المستوى الأوّل للغة وهو الصّوت، ثمّ اللفظ والمعنى والتّركيب الواقع في مختلف فنون الأدب من خطابة ورسائل وشعر ووصايا، إذ بلاغة هذه الفنون الأدبيّة وبيانها وفصاحتها يكمن في طرائق بيانها.

لذلك، فإنّ معايير الخطاب والتّخاطب البلاغي عند الجاحظ تتجلّى، من حيث إنّ مواضيع البلاغة تكمن في الخطابة والشّعر والرّسائل والنّوادر... وغيرها.

في معيار أساسي وهو "**البيان**"، حيث يرتبط بالخطاب من حيث كميّة الأخبار وطريقة نقل الأخبار وبعلاقته بالمقامات ومقتضيات الأحوال.

وعليه، فإنّ البيان عنده هو الآخر يتصوّره بحاجة إلى " تمييز وسياسة والى ترتيب ورياضة، والى تمام الآلة وإحكام الصّنعة، والى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة" [75]، لذلك يحتكم البيان عند الجاحظ لشروط ومعايير تداوليّة بالدّرجة الأولى، حيث يرتبط البيان بالخطاب داخليا وخارجيا ليحقق مبدأ الفهم والإفهام ووصول المعنى إلى المتلقي. فنجاح الخطاب البلاغي مرهون بمدى البيان فيه، وتحقّق البيان كذلك مرهون بمدى إتّباع شروط التّخاطب الذي يهدف إلى تحقيق المنفعة والفهم والإفهام. لذا فإنّ فكر الجاحظ في كتابه "**البيان والتّبيين**" فكر لساني تداولي خاضع لأسس ومعايير تداوليّة تحقّق بيان المقاصد للمتكلّمين على أكمل وجه وأبلغ صورة.

الهوامش والإحالات:

[1] - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، ط6، ص:9 وما بعدها [1]

[2] - المرجع نفسه، ص:32- 33

[3] - ينظر أرسطو طاليس، فن الشّعر، ترجمة وتقديم: إبراهيم حمادة، مكتبة الانجلو مصريّة د.ت، د.ط، ص: 24 وما بعدها

[4] - ينظر أرسطو طاليس، فن الخطابة، تحقيق: عبد الرّحمن بدوي، دار القلم، بيروت لبنان 1979، ص:16 وما بعدها

[5] - عبد الرّحمن حسن حنبة الميداني، البلاغة العربيّة أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم بيروت، ط1،1416ه/1996، ج1، ص:11 بتصرف

[6] - ينظر أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، الدّار البيضاء، المغرب، ط1 1426ه/2006 ص:14

[7] - أبو هلال العسكري، الصّناعتين: الكتابة والشّعر، تحقيق: علي محمّد البجاوي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ط1، 1371ه/1952، ص:4 وما بعدها

[8] - ابن خلدون عبد الرّحمن، المقدّمة (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم ذوي الشّأن الأكبر)، ضبط المتن: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر بيروت، لبنان، ج1، 1431ه/2001، ص:763

[9] - الجاحظ أبو عثمان بحر بن عمرو، البيان والتّبيين، القاهرة، ط7 1418ه/1998،ج1،ص:7

[10] - المصدر نفسه، ج1، ص: 116/115

[11] - المصدر نفسه، ص:88

[12] - المصدر نفسه، ص:75 - 76

[13] - المصدر نفسه، ص:76

[14] - المصدر نفسه، ج1، ص:75 بتصرف

[15] - أبو هلال العسكري، الصّناعتين، ص:7

[16] - السّكاكي أبو يعقوب مفتاح العلوم، تعليق: نعيم زرزو، دار الكتب العلميّة، بيروت لبنان ط2 ،1407ه/1987، ص:416

[17] - المصدر نفسه، ص:416

[18] - الجرجاني الشّريف، التّعريفات،تحقيق: محمّد الصّديق المنشاوي،دار الفضيلة،،ص:141

[19] - المصدر نفسه، ص:43

[20] - عمر أوكان، اللغة والخطاب، دار إفريقيا الشّرق، بيروت، لبنان، 2001، ص:36

[21] - حمو الحاج ذهبيّة، لسانيات التّلفظ وتداوليّة الخطاب، دار الأمل، تيزي وزو ط2،2012، ص:190 وحمو الحاج ذهبيّة، التّداوليّة واستراتيجيات التّواصل، رؤيّة للنشر والتّوزيع، ط1، 2015، ص:260

[22] - لتفاصيل أوفى حول الوظائف ينظر عزوز أحمد، المدارس اللسانيّة، دار ال الرّضوان وهران، الجزائر، ط2، ص: 145و بومزبر الطّاهر بن حسين، التّواصل اللساني والشّعريّة الدّار العربيّة، بيروت، لبنان، ط1،2007

[23] - ينظر احمد المتوكل، الخطاب الموسّط: مقاربة وظيفيّة موحدة لتحليل النّصوص والتّرجمة وتعليم اللغات، دار الأمان، الرّباط، ص:15

[24] - ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق: محمّد علي النّجار، المكتبة العلميّة، د.ت د.ط،ج1،ص:33

[25] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص:79

[26] - ينظر أندري مارتيني، مبادئ في اللسانيات العامة، سلسلة العلوم والمعرفة، دار الأفاق ص:18

[27] - ينظر أحمد حساني، مباحث في اللسانيات، الإمارات العربيّة المتحدة، ط1- 2007/ط2- 2013، ص: 190 وما بعدها

[28] - ينظر المرجع نفسه،ص: 161 وما بعدها

[29] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ص:76

[30] - أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، مكتبة لسان العرب، عالم الكتب، ط5، 1998 ص:34

[31] - أحمد عبد المجيد هريدي، الألعاب الكلاميّة اللسانيّة، دراسة صوتيّة تركيبيّة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1،1420ه/1999، ص:65 وما بعدها

[32] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص:24

[33] - F. DE SAUSSURE.. COURS DE LINGUISTIQUE GENERALE .ED : PAYOT ;PARIS 1978 ;P :9_

[34] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ص:114

[35] - المصدر نفسه، ج1، ص:113

[36] - ينظر شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص:9 وما بعدها

[37] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ص:76

[38] - الجاحظ، الحيوان، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، ط2، 1384ه/1965، ص:131- 132

[39] - ينظر الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: المعاني والبيان والبديع، وضع الحواشي: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنانط1،1424ه/2003 ص:13 وما بعدها

[40] - الجاحظ، البيان والتّبيين، ص:113

[41]- المصدر نفسه، ص:144

[42]- المصدر نفسه، ص:115

[43]- المصدر نفسه، ص:116

[44]- المصدر نفسه، ص:135- 136 بتصرف

[45]- المصدر نفسه، ص:92

[46]- طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان أو التّكوثر العقلي، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، ط2،2002، ص:103

[47]- البيان والتّبيين، ص:147

[48]- المصدر نفسه، ص:88

[49]- المصدر نفسه، ص:138

[50]- ينظر طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان، ص:239

[51]- الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص:138- 139

[52]- ينظر جاك موشلر وآن ريبول، القاموس الموسوعي في التّداوليّة، ترجمة : مجموعة من الباحثين، اشراف: عز الدّين المجدوب، مراجعة: خالدّ ميلاد، دار سيناترا تونس،2010،ص:230

[53]- الجاحظ، البيان والتّبيي ن، ص:139

[54]- المصدر نفسه، ص:93

[55]- المصدر نفسه، ص:92

[56]- طه عبد الرّحمن، التّواصل والحجاج، مطبعة المعارف الجديدة، الرّباط، سلسلة الدّروس الافتتاحيّة، الدّرس 10، ص:5

[57]- الجاحظ، البيان والتّبيين، ص:116

[58]- المصدر نفسه، ج1، ص:116/115

[59]- المصدر نفسه، ص:88

[60]- عبد الله صولة، في نظريّة الحجاج: دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر تونس ط1،2011، ص:13

[61]- البيان والتّبيين، ص:212

[62]- ينظر جميل الحمداوي، من الحجاج إلى البلاغة الجديدة، دار إفريقيا الشّرق المغرب،2014، ص:10

[63]- طه عبد الرّحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي، الرّباط المغرب، ط2،2002، ص:65

[64]- صابر الحباشة، التّداوليّة والحجاج: مداخل ونصوص سوريا، دمشق، ط1،2008 ص:52

[65]- البيان والتّبيين، ص:92 بتصرف

[66]- الجرجاني الشّريف، التّعريفات، ص:38

[67]- البيان والتّبيين، ص:96

[68]- ينظر طه عبد الرّحمن، اللسان والميزان، ص: 238وما بعدها

[69]- ينظر الجاحظ، البيان والتّبيين، ص:210 و287

[70]- البيان والتّبيين، ص:88

[71]- الجاحظ، الحيوان، ص:131- 132

[72]- البيان والتّبيين، ص:81

[73]- المصدر نفسه، الصّفحة نفسها

[74]- المصدر نفسه، ج1، ص:136

[75]- المصدر نفسه،ص:14